وأولى الناس بهديه ، وهم هم خذلوه وهجروه ، وحفظوا ظاهره وضيعوه . « وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا » فإن ترهم اليوم في فرقة وشقاق فيما ضيّعوا أخوّة الإسلام ، وإن ترهم في منلة وهوان فيما فرطوا في عزة الإسلام ، وإن ترهم أتباعاً فقد علمهم الإسلام مشرعة السيادة فنبذوها ، وأعطاهم أزمة القيادة فأضاعوها

أيها المسلمون ، هذه ذكرى نبيكم ، وميلاد تاريخكم ، ومبدأ مجدكم ، ومنشأ سعادتكم ؛ فإن شئتم لأنفسكم السيادة والسعادة فكونوا أهلاً لهذا الشرف . كونوا بأخلاقكم وأعمالكم جديرين بأن تسمّوا أمة محمد . ولا تتخذوا الانتساب إلى محمد هزواً ولعباً ، وتحسبوا الإسلام أسماء وأقوالاً ، فإنما هو الأخلاق والأفعال والجهاد الذي لا يفتر ، فمن شاء أن ينتسب إلى محمد فهذه سنته ، ومن شاء مجد محمد فهذه طريقته

« يأيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشرا ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيرا » .

عبد الوهاب عزام

نظرة في مناظرة

للأستاذ محمد توحيد السلحدار بك

قال بعض أصحاب الفكر والذوق للمعاني : إن الثقافة وهي أطراف صالحة من أثمار العقول ، العلمية والفنية والأدبية ، بها يلتفت المثقف إلى المبادىء والأسباب والقوانين والحقائق ، ويرشد قومه إلى الأصلح لحالهم ، والأنفع لترقيتهم ، والأخلق بالإنسانية ...

ومناظرة الأستاذ العقاد بكلية الآداب - في أن « التراث الشرقي كاف لتنضج الحياة العقلية بين الشرقيين » - هي مشاركة في بحث يمتّ إلى هذه الثقافة ، إذ يرمي إلى إثارة الأذهان بالكشف عن الحقيقة في الخلاف بين الذاهبين إلى الأخذ عن الغرب وبين القائلين بالاقتصار على تراث الشرق ، في سبيل نهضتنا ؛ والحقيقة تتبيّن من مقابلة الشيء بضده ، والموازنة بين الرأيين

ألقى على الأستاذ الفاضل عبء الدفاع عن الرأي الذي يصعب تأييده ، وهو ابن بجدته ، فجاء من الحجج بما يسر الخروج منه . وكان كلامه ، مع إيجازه المطابق لمقتضى المقام ، أحسن ما يستطيع مثقف أن يقول في الموضوع . وفي الأدب العربي فصول في مثل إيثار الدمامة على الجمال ، ونحو ذلك من الموضوعات التي لا يُجيد متناولها إلا بأوفر دراية ولباقة . لكن ذلك الكلام أذكرنا مناقضات نوردو[1] للآراء المألوفة في الاجتماعيات والنفسيات ، ورسالة روسو[2] في حمد الجهل وتفضيله على العلم ، وقد أجازه عليها مجمع ديجون[3] وكدنا نصدقها يوم قرأناها

استخدم المناظر منطقاً وبياناً في طريقة حصيفة هدته إليها ثقافته ؛ وصاحب المنطق يستطيع أن يهدي به ويضل ، وصاحب البيان ساحر ، والثقافة قدرة إن شاء حاورها أحالت الهدى ضلالا والضلال هدى ، وهو لم يشأ ، بل أراد فتق الأفكار والآراء بالمناقضة ، وتعليم النظر الأدبي وذلاقة اللسان بالمثال البارع ؛ وافتتح كلامه بقوله « كان من نصيبي » أن أؤيد هذا الرأي ، فكأنه أراد أن ينبه في لطف على قبوله القيام بهذا التأييد كي تقوم المناظرة المفيدة ؛ ولم يقل إن رأيه الشخصي هو الاكتفاء بالتراث الشرقي ، وإن ساق الحجج الحاذقة في كفايته لتنضج الحياة العقلية « عند الشرقيين »

* * *

قال : إن تراث الشرقيين هو « ما لهم من أشعار ومواعظ وأمثال وحكايات وآداب وقواعد سلوك ، وروح العقائد الدينية

(١) Max Nordau :
Paradoxes Sociologiques
Paradoxes Psychologiques

(٢) Jean Jacques Rousseau ; Eloge de l'Ignorance

(٣) Dijon

والحكمة النفسية والفكرية ، وما يصاحب ذلك من فقه شريعة ودين » .

أما العلوم الطبيعية التجريبية — يعنى العلوم الحديثة — والمعارف الرياضية ، فإنها خارجة عن التراث الشرق والتراث الغربى معاً ، لأن « الحقيقة الطبيعية ثابتة فى جميع الجهات » ، يكتشفها « الإنسان باعتباره إنساناً مدركا حيث كان » و « ما كشف منها فى الغرب تتمة لما سبقها منذ بداية عهد الإنسان بالمعرفة ، فهى جزء من التراث الإنسانى » ؛ ولأن المعارف الرياضية « لا تتوقف على المشاهدات والمحسوسات بمقدار ما تتوقف على قوانين العقل المجرد ، المعزول عن خصائص الأوطان والأزمنة » .

* * *

لـ تحقيق النظر فى التراث الشرق محصوراً فى هذه الحدود يُظهر أن لبابه من ثمر أحوال النفس الواحدة فى البشر ، ومن أحكام العقل البشرى ونتائج تجارب الإنسان أينما كان ، ومن مقتضيات حاجاته فى الحياة الإنسانية : فالحب — مثلاً — فى الشرق هو الحب فى الغرب ، وكذلك البغض أو الشجاعة أو الجبن ، أو الفرح أو الحزن وسائر الوجدانيات ، وكل أولئك معزول فى ماهيته عن خصائص الأوطان والأزمان ؛ والإنسان « باعتباره إنساناً مدركا حيث كان » ، قد عرف حاجته إلى الحث على الخير والنهى عن الشر ، وإلى إقامة النظام يتقى به آفات الفوضى ؛ وهـذه المعرفة ونتائجها من التراث الإنسانى . ومن الحكم والمواعظ العربية ما له نظائر فى تعاليم « كونفوشيوس »[٤] مثلاً ، أو فى أخلاقيات « فوفنارج »[٥] ؛ وفى الشرائع الرومانية ما يقارب بعض الشرع الإسلامى ؛ وفى الأدب اليونانى ما يماثل بعض الشعر العربى ، وفى الأدب العربى ما يشبه أمثالاً وحكايات هندية أو فارسية أو غيرها ؛ وذلك كله بأن الإنسانية دارجة فى تطور عام واحد مطرد ، على نحو ما بينه « ريكلو »[٦] و « ويلز »[٧] وإن لم تخل قبائلها وشعوبها من أنواع التفاوت فى الدنية

فمهما كان على هذا التراث من سمة وطنية ومن أثواب اللغة العربية ، فهو فى جوهره حلقة من سلسلة الأعمار العقلية والنفسية ، وهى سلسلة لا يقف تمددها « منذ بداية عهد الإنسان بالمعرفة » .

وتلك أمور إنسانية فى صميمها مهما كانت من قبيل ما يمتزج بحياة الشرقيين ، و « مصطبغ بصبغة الشرق ويجرى على سننه »

وليس هـذا بمانع من أن يقال : « إن الحياة العقلية إذا نضجت بين الشرقيين ، فهى لاحقة بالتراث الشرق أيا كان المصدر الذى جاءت منه أو حملت عنوانه » ، مثل الفلسفة اليونانية كما نقلتها الحياة العقلية الشرقية إلى الشرق العربى ؛ أو يقال : إن الحقيقة الطبيعية أو الرياضية منسوبة إلى العقل الناضج الذى كشفها — كنسبة قوانين الجذب العام إلى نيوتن[٨] — وإن كانت من « التراث الإنسانى »

* * *

أما العقل فإننا إذا اعتبرناه عضواً فى الإنسان ، كعينه وأذنه وسائر أعضائه الظاهرة والباطنة ، فهو ينضج كما تنضج بالبلوغ وتستحصف إلى الأربعين ، وهو يؤدى وظيفته كما تؤدى وظائفها ، وذلك منذ تميز الإنسان عن الحيوان فى ظلمات الماضى الأقصى ، بالنسبة إلى علمنا ، من اللانهاية الزمنية ، وإنما تميز بقدرة عقله على التصور والقياس والحكم . وعقل الإنسان « يعمل ويفكر ، ويبحث فيما يراه ويحيط به ، أيا كانت المسائل التى يتناولها بتفكيره وبحثه » منذ لم يكن له أى تراث فى أى

(٤) Confucius أو Koung-Fou-Tseu

(٥) Lue de Clapiers de Vauvenargues

(٦) Elisée Reclus

(٧) Wells

(٨) Isaac Newton

مكان ؛ ولولا ذلك لما سما إلى مستوى هذه المدنية . فالسلامة البدنية والصحة النفسية تكفيان وحدهما أبداً لتصحيح العقل الذى يصيب ويخطئ ، كما تخطئ العين وتصيب ؛ وبين الأفراد تفاوت فى حصافته الفطرية كتفاوت حدتها فيهم ، ولكنه عقل ناضج بهذا الاعتبار على كل حال .

كان العقل الناضج هذا النضج فى الإنسان « يعمل ويفكر فيما يراه ويحيط به » يوم كان صاحبه يعيش عيشة الوحوش المفترسة ، ويخشى ظواهر الطبيعة التى يجهل كل شىء من أسرارها ؛ ويوم أدرك ضرورة الحد من حريته الفردية الفوضوية ، ويوم وضع نُظُماً العائلة فالقبيلة ، إلى آخر ما هنالك . وهذه مستويات تدرج الإنسان فى الرقى إليها مع تدرج عقله الناضج فى نضجه التطورى بما غذاه ، فى كل وقت ، من تجاربه وتجارب سلفه وعمل عقولهم الإنسانية .

* * *

ويتضح مما تقدم بيانه أن العقل باعتباره عضواً من الإنسان له نضجان : نضج أول هو قدرته على تأدية وظيفته الفطرية ، وهو عام بين الأصحاء لا يُحسن تأديتها إلا به ؛ ونضج ثان هو إدراكه محصول أعمال العقول الإنسانية فى زمان معيّن من حياة البشر مع قدرته على المشاركة فى زيادة هذا المحصول أو تحسينه ؛ فللعقل البشرى فى كل مستوى أعلى من مستويات العرفان العام نضج أتمّ .

والجدير بالنظر إنما هو النضج الذى غذته أثمار العقول الإنسانية فى هذا الوقت ، والذى به يتيسر للمثقف أن يشارك فى إنماء هذه الأثمار أو تحسينها ، فى أية ناحية يميل إليها ، فيكون لعمله شأن يذكر له ويشكر ، والأستاذ نفسه أدرى الناس بالفرق بين نضج عقله القوى قبل أن يعى كل ما استوعب من الثقافة الغربية ، أو العصرية ، وبين نضجه بعد ذلك ؛ لكن كان عليه أن يعارض رأى مناظريه ، فعارضه بطريقة حاذقة شفّت عن هذا النضج الأخير ، أى عن ثقافة سامية

والخلاصة أن العقل يُعَد ناضجاً ، أو غير ناضج ، لا من حيث تأديته وظيفته فحسب ، بل من حيث قيمة ما وعى وما ينتج ، فهى قيمة مناسبة لدرجة علمه وثقافته ، والمهم إذن فى النضج إنما هو مستوى « الموضوعات والمواد التى يتناولها » عمل العقل ؛ ولذا ليس يمكن أن تنضج للشرقيين حياة عقلية إذا هم لم يأخذوا عن الغرب فى هذا العصر . أما إن هم اقتصروا على تراث الشرق بحاله المحدودة فى ثقافة عصر غابر كانوا كأنهم عائشون فيه ، ولن أراد بنضج العقل ذلك النضج الأول ، أو أراد نضجاً عتيقاً ، أن يقول إن « التراث الشرقى كاف لنضج الحياة العقلية ، ولم يخل الشرق من العقول الناضجة قديماً وحديثاً »

فهارون الرشيد وابن خلدون كان كل منهما ناضج العقل فى مستوى الثقافة العربية فى زمانه ومكانه ، بعدئذ مضى على خروج العرب من شبه جزيرتهم قرنان إلى ثمانية قرون بنوا دولهم فيها على ما طوّعوا للدين والشريعة من نظم ومدنيات وفلسفات لأمم كاليونان والرومان والفرس وسواهم . أما جمال الدين الأفغانى فقد يكون فيما نعتوه به مواضع نظر لعلها تستدعى التحقيق العلمى المتحرّر من المؤثرات الوجدانية والسياسية ؛ ولولا تفاهة ما أفاد من الثقافة الغربية لاختلف شأنه . . .

وليس يصح أن نوازن بين عقول أمثال هؤلاء الرجال وبين عقول تلاميذنا لتفاوت الأسنان والتجارب والمشاغل ، ولقلة المحصول فى التلمذة فضلاً عن أننا ما نزال فى سبيل التحصيل من الثقافة الحديثة ؛ ولسنا نشك فى أن بين تلاميذنا النجباء من لا يقل فى نضج العقل ، ذلك النضج الأول ، عن أولئك الرجال حين كانوا فى سن التلمذة

* * *

ألا إن البحار والجبال لم تحل دون التنقل والاتصال بين بنى الإنسان من قديم الأزمان حتى عصر الطيران . والناس إلى الآن يفرقون بين الشرق والغرب ، وبين الأسود والأبيض ،